الطب القديم في القطر المصري

بقلم صاحب السعادة الدكتور حسن باشا محمود

اختلف العلماء في المكان الذي نشأ فيه علم الطب اولاً فقال بعضهم انهُ اليمن وبعضهم انهُ الهند وبعضهم انهُ بابل او مصر او بلاد اليونان . واعتقد الاقدمون ان المشاهدة هي اساس الطب فاذا اصيب احد بثقل في رأسهِ واحمرّت وجنتاهُ وعيناهُ ثم حصل لهُ رعاف بلا سبب ظاهر وعوفي ممّا اصابهُ استنتجوا ان الفصد نافع في الاحتقان والامتلاء الدموي . واذا اصيب آخر بمغص وقيض ثم طرأ عليهِ اسهال وشفي استنتجوا ان المسهل نافع في مثل ذلك وعلى هذا النحو وضع الاقدمون علم الطب والعلاج

وقد قال المؤرخ هيرودوتس ان المصريين الاقدمين كانوا يعتنون بصحتهم حسب اوامر اطبّائهم فكانوا يشربون مقيئاً او مسهلاً كل ثلاثة وثلاثين يوماً لاجل تنظيف ابدانهم لانهم كانوا يعتقدون ان الامراض تحصل من فضلات الاطعمة المتخلفة المعدة . وليس من غرضي ان اطيل الكلام في تاريخ الطب بل ان اقتصر على ذكر بعض الاطباء المصريين وما لهم من الايادي البيضاء في توسيع علم الطب

زمن الفراعنة

كانت مصر في زمن الفراعنة ساطعة بالمعارف الطبيَّة والفنون اجمع كما يُعلَم من التواريخ القديمة . واول طبيب اشتهر فيها تيتا بن الملك مينا اول الفراعنة وقد ألّف كتاباً في علم التشريح . وجاء بعدهُ سنّد (اوسنط) احد ملوك الدولة الثانية والف كتاباً في الطب وُجدت نسخة منهُ منذ عهد قريب وارسلت الى مدينة برلين . ووجد ايضاً كتابان طبيّان احدهما كتب في زمن الملك خوفو والثاني في زمن منكهور من الدولة الرابعة . والاخير منهما مؤلف من تذاكر (وصفات) طبيَّة . وبقيت هذه الكتب متبعة الى ايام الدولة التاسعة من الدول المصريَّة وكان منها نسخ في مكاتب دور العلوم بمنف وسايس وهليوبوليس واعتمد عليها المصريون واليونانيون . حتى ان بعض ما تضمنتهُ لم يزل مستعملاً الى الآن في الاقرابازين الحالي

وكان الطب مقسوماً عند المصريين الى اقسام وكل طبيب يشتغل بقسم مخصوص فبعضهم يشتغل بطب العيون وبعضهم بالجراحة وبعضهم بامراض الرأس وبعضهم بامراض البطن وبعضهم بالامراض الباطنة عموماً وكان عندهم اطباء يستشيرونهم في الامراض خاصّة

ولم يمهر الاطباء المصريون في صناعة التشريح حينئذٍ مع مهارتهم في صناعة التحنيط لانهم كانوا يخافون من تشريح الموتى خوفاً دينيًّا . وكانوا يقولون ان في مؤخر الخ وعائين وفي مقدَّمهِ وعائين آخرين وكذا في العينين والانف والاذنين فتدخل نسمة الحياة من الايمن ويدخل الهواء من الايسر ويسري في الاوردة والشرايين ويمتزج بالدم ويجري معهُ في الجسم كلهِ لتحريك الحيوان . ووقت الموت يخرج الهواء مع الحياة فيجمد الدم وتفرغ الشرايين والاوردة فيموت الحيوان

وكانوا يعالجون الارماد والدوالي وقروح الساقين والصرع والحمرة والدبدان والصداع وامراض الحمل والولادة وكان لهم المام بالتشخيص فيعرفون الالتهاب مثلاً بثقل في الرأس وسرعة في النبض وضربات القلب وعدم الدفا ولو كثر اللباس والدثار

ونقسم ادويتهم الى اربعة انواع المراهم والتخ والجرع والحقن . وكلٌ منها يتركب من مواد كثيرة مختلفة وقد رأيتُ مذكورًا منها اكثر من خمسين مادةً نباتيَّة من الحشائش والاشجار . وعدوا من الجواهر المعدنيَّة كبريتات النحاس وملح الطعام وملح البارود وحجر المغنيس . وكانوا يستعملون ادوية من اللحم والكبد والصفراء والدم والشعر والقرون ولبن المرأة وبنجة الأسد والبول والزيوت . وكان اعتمادهم في ازالة السبب المحدث للمرض على الادعية والصلوات يزعمون انها تبعد القوَّة الروحانيَّة المتسلطة على المرض فاذا دعي طبيب لتطبيب مريض مثلاً عزَّم عليهِ اولاً بقولهِ " ايها العفريت الساكن في بطن فلان ابن فلان بحق ابيك المسمَّى بضرَّاب الرؤوس وبحق كذا وكذا اخرج من بطن فلان بحق من اسمهُ مخلد الى الابد " . وبعد ان يسكِّن الطبيب حالة المريض بهذه التعزيمة يشيرعليهِ بالدواء الحقيقي فيشفى كأن التعزيم الروحاني يؤثر في ازالة السبب الخفي من الحواس والعلاج المادي يؤثر في ظواهر المرض . وقد درجوا على هذا العمل وهذا الاعتقاد الى نهاية حكم الفرس اي الى ان زالت الدولة السابعة والعشرون سنة ١١٤٩ قبل الهجرة ولا غرابة في ذلك فاننا نرى مثل هذا الاعتقاد الآن عند بعض العوام حيث نجدهم يستعملون التبخير والتقسيم والتعزيم ويعتمدون على التمائم والزار واخراج العفاريت لشفاء الامراض

اما الاطباء الذين نشأوا في هذا القطر من المصريين والمتمصرين في زمن الرومان واليونان فلم اعثر لهم على شيء في علم الطب بعد البحث والتنقيب

ويظهر مما تقدَّم ان الطب وجد في مصر من قديم الزمان وان الاطباء الاقدمين

كانوا على جانب كبير من المعارف الطبيَّة والعلاجيَّة وكانوا يعرفون الامراض الباطنة والتشريح والولادة والرمد والاقراباذين

زمن الاسلام

وجدتُ في كتاب احمد بن عباس وكتاب جمال الدين السيوطي وغيرهما ذكر كثيرين من الاطباء الذين نشأُوا في هذا القطر بعد الاسلام وهاك اسماءهم مع ذكر القليل مما يعرف عنهم

(١) بليطان كان طبيباً ماهراً مشهوراً بديار مصر وعالماً بشريعة النصارى تولَّى البطريركيَّة بالاسكندريَّة في السنة السابعة من خلافة المنصور احد الخلفاء العباسيين . وسبب شهرتهِ انهُ عالج جارية من جواري هرون الرشيد كانت اعتلت بعلة معضلة فعالجها الاطباء فلم تزُل فقالوا لهُ ابعث الى عبيد الله عاملك بمصر ليرسل لك احد اطبائها لانهم ابصر بعلاج هذه الجارية من اطباء العراق فأرسل الى عبيد الله بذلك فاختار لهُ بليطان المذكور واسلهُ الى الرشيد فلما عالج الجارية زالت علتها فوهب لهُ الرشيد مالاً كثيراً وتوفي سنة ١٨٦ للهجرة

(٢) ابراهيم بن عيسى كان طبيباً فاضلاً معروفاً في زمانهِ بالمهارة قرأ على يوحنا ابن ماسوية ببغداد وسافر معهُ الى مصر واقام بالفسطاط الى ان توفي سنة ١٦٠ للهجرة

(٣) الحسن بن زيرك كان طبيباً في مصر ايام احمد بن طولون. وكان ابن طولون قد دخل انطاكية عند عودتهِ من دمشق فادركتهُ الحيضة فعاد بها الى مصر ولما دخل الفسطاط احضر الحسن بن زيرك المذكور فسهَّل عليهِ امر علتهِ واعلمهُ بانهُ يرجو لهُ السلامة منها عن قريب ولكن ابن طولون اساء التدبير واكثر التخليط واكل سمكاً فزاد اسهالهُ فاحضر الحسن بن زيرك وقال الذي سقيتنيهِ اليوم غير صواب فقال لهُ الحسن يأمر الامير ايدهُ الله باحضار جماعة اطباء الفسطاط في دارهِ ليتفقوا على ما يأخذهُ وافي ما سقيتك الاَّ اشياء تنهض القوَّة الماسكة في معدتك وكبدك فهددهُ احمد بن طولون بضرب عنقهِ هو ومن يحضر من الاطباء معهُ ان لم ينجحوا في علاجهِ فخرج الحسن من بين يديهِ وهو يرتعد خوفاً فاعترتهُ علة احمد بن طولون واستولى عليهِ الغم فمات من غدهِ

(٤) سعيد بن نوفيل كان ممتازاً في صناعة الطب واستصحبهُ احمد بن طولون معهُ في السفر والحضر وكان لهُ والد يصنع الادوية الَّتي توافق النساء من تحسين اللون وتطويل الشعر والحمل فدعي بطبيب الحريم لكنهُ كان قبيح المنظر . وقد نصح احمد بن

طولون باتباع الحمية ولكنهُ لم يتبع نصيحتهُ فزاد عليهِ الاسهال الذي كان بهِ فشكى لسعيد حالهُ فقال لهُ ان ذلك آتٍ من افراطك في الاكل فقال لهُ لماذا تفادرني وانا عليل ثم دعا بالسياط فضربهُ مائتي سوط فمات بعد يومين وذلك سنة ٢٦٩ وقيل سنة ٢٧٩ وهي السنة الَّتي مات فيها ابن طولون في ذي القعدة والله اعلم

(٥) خلف الطولوني هو ابو علي مولى امير المؤمنين — كان مشتغلاً بصناعة الطب ولهُ معرفة تامة بامراض العيون ومن مؤلفاتهِ كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وجملة الكتاب مكتوب بخطهِ ابتدأ في تأليفهِ سنة ٢٦٤ وفرغ منهُ في سنة ٣٠٢ هجرية

(٦) سعيد بن البطريق كان من فسطاط مصر مشهورًا بالطب وماهرًا فيهِ ولد في ٣ ذي الحجة سنة ٢٦٣ هجرية وعيَّنهُ محمَّد بن احمد المعتضد بالله بطريركًا على الاسكندريَّة ويسمى اثوسيوس واعتل بالاسهال في مصر فمات في رجب سنة ٣٢٨ ولهُ من المؤلفات كتاب في الطب العملي والعلمي وكتاب نظم الجوهر وكتاب الجدل بين المخالف والنصراني وتاريخ الخلفاء والملوك المتقدمين وذكر البطاركة واحوالهم

(٧) التميمي هو عبد الله محمَّد بن احمد التميمي كان ذا خبرة بالنبات وماهياتهِ والكلام عليهِ ومشهورًا في صناعة الطب والاطلاع على وقائع كثيرة فيهِ ولهُ خبرة تامة في تركيب المعاجين والادوية المفردة وادوية الترياق واقام بمصر الى ان توفي في المئة الرابعة من الهجرة وقد ذكر في كتاب لهُ صفة سفوف للرجفان الحادث عن المرة السوداء المحترقة وذكر انهُ نقل تلك الصفة عن انبا زخريا بن توابه . وذكر ايضًا في مصنفاتهِ دخنًا ومعاجين طبيَّة رافعة للوباء . ادرك الدولة العلويَّة عند دخولها الديار المصريَّة وصحب الوزير يعقوب بن كاس وزير المعز والعزيز وصنف كتابًا سماهُ مادة البقاء باصلاح الهواء والتحرز من شرور الوباء وكل ذلك كان بالقاهرة المعزيَّة وكان صنف لابنهِ عليّ رسالة في صنعة الترياق وهو في الفاروق ولهُ مقالة ايضًا في ماهية الرمد واسبابهِ وعلاجهِ وكتاب الفحص والاخبار

(٨) سهلان هو ابو الحسن سهلان بن عثمان من اطباء مصر خدم الخلفاء بمصر وارتفع شأنهُ في ايام المعز وتوفي في ذي الحجة سنة ٣٨٠ ودفن في دير القصير وكانت تركتهُ كثيرة

(٩) الحقير النافع كان في زمن الحاكم بامر الله طبيباً جرّاحاً حسن المعالجة وعالج الحاكم من عقر اصابهُ وازمن معهُ فلما شفاهُ منهُ اعطاهُ الف دينار وخلع عليهِ ولقبهُ بالحقير النافع وجعلهُ من اطبائهِ الخواص

(١٠) علي بن سليمان كان طبيباً فاضلاً متقناً العلوم الطبيَّة والرياضيَّة اوحد عصرهِ في احكام النجوم وكان في ايام العزيز ووالدهِ الحاكم ومن مؤلفاتهِ مختصر الحاوي في الطب وكتاب الامثلة والتجارب والاخبار والنكت والخواص الطبيَّة المستخرجة من كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما وكتاب التعاليق الفلسفيَّة الفهُ سنة ٣٩١ ولهُ مقالة ايضاً في ان الجسم قابل للتجزء ولا ينتهي الى ما لا يتجزأ

(١١) ابو علي مُحَمَّد بن الحسن بن الهيثم كان متفنناً في العلوم خبيرًا باصول صناعة الطب وقوانينها وامورها وتصانيفهُ كثيرة الافادة واقام في القاهرة بالجامع الازهر ايام الحاكم ولهُ من المؤلفات نحو ٤٤ ما بين كتب ورسائل في الطب والرياضة والفلك وغير ذلك مما يضيق المقام عن سردهِ توفي سنة ٤٢٩ للهجرة

(١٢) المبشر بن فاتك هو الامير محمود الدولة ابو الوفاء من اعيان امراء مصر وافاضل علمائها وكان ماهرًا في الطب ألَّف كتباً كثيرة منها كتاب الوصايا والامثال وكتاب مختار الحكم وكتاب البداية في المنطق وكان لهُ خزانة كتب كبيرة فلما توفي قامت زوجتهُ وجعلت تندبهُ وترمي الكتب في بركة ماء كانت في وسط الدار هي وجواريها لكثرة اشتغالهِ بها

(١٣) علي بن رضوان هو ابو الحسن علي بن رضوان بن جعفر ولد بمصر وتعلم الطب بها وكان عالمًا في الفلك والفلسفة ايضاً وألَّف كتاب الاصول في الطب ومقالة في الاورام وكتاب الادوية المفردة مرتبة على حروف المعجم ولهُ ٢٢ مقالة منها رسالة في السكون والفساد ورسالة في بقاء النفس بعد الموت ومقالة في الحر ومقالة في حدوث العالم وغير ذلك

(١٤) ابو فتيز بن حسن كان طبيباً وفيلسوفاً كبيرًا ترك بعد وفاتهِ مكتبة تحتوي على ٩٠٠٠ كتاب وخدم الخلفاء

(١٥) مبارك بن رضوان كان طبيباً مشهورًا ألف رسالة في الجمرة ودرس فروع الطب وعالج الخلفاء

(١٦) الرئيس موسى وحيد زمانه كان طبيباً متفنناً اقام بالفسطاط ايام الملك ناصر صلاح الدين وألف ملخص كتاب جالينوس في ١٦ مجلداً ورسالة في البواسير وكتاباً في العقاقير والوسائط الصحيَّة والسموم وكان مشتغلاً بالفلسفة ايضاً

(١٧) ابن البيطار . هو ضياء الدين بن البيطار كان تقياً فاضلاً حكيماً ماهراً نباتياً متقناً من الطبقة الاولى في علم النباتات ساح لدراستها غالب الجهات خصوصاً بلاد المغاربة والرومانيين وكان في خدمة الملك الكامل محمَّد بن ابي بكر واقيم شيخاً على طائفة باعة العقاقير بمصر والَّف جملة كتب منها كتابهُ المسمى بالمفردات في النباتات وخواصها الطبيَّة

يظهر مما تقدم ان كثيرين من الاطباء المصريين الاقدمين كان لهم خبرة تامة في الطب المصري ثم بالطب اليوناني وكان لهم مؤلفات جمة نافعة يعول عليها ومنها ما هو موجود الى الآن ومنها ما اخفى عليهِ الدهر فأَبلاهُ وكلها ذات قاعدة واحدة مؤسسة على الاخلاط والامزجة الاربعة وهي

اولاً الخلط الصفراوي وهو عندهم حار جاف واصلهُ من الحرارة الطبيعيَّة ومقرهُ الحويصلة المراريَّة

ثانياً الخلط الدموي وهو حار رطب يتولد من الهواء ومقرهُ الكبد

ثالثاً الخلط البلغمي وهو بارد رطب يتولد من الماء ومقرهُ الرئتان

رابعاً الخلط السوداوي وهو بارد جاف يتولد من الارض ومقرهُ الطحال

ومن هذه الاخلاط تكون الحالة الصحيَّة او المرضيَّة ولذا يلزم ان تكون طبيعة الادوية مضادة لطبيعة الخلط المتسلط مثلاً اذا تسلطت الصفراء لزم ان تكون ادويتها ذات طبيعة باردة رطبة واذا تسلطت السوداء وجب ان تكون ادويتها حارة رطبة وتكون ادوية الخلط البلغمي حارة يابسة والدموي باردة يابسة هذه هي القاعدة العامة في معالجة الاطباء الاقدمين وهذا ما دعاهم الى تقسيم الادوية الى حار وبارد ورطب ويابس وكانوا يذكرون البرد والحر من اسباب الامراض ويصنعون الدواء حارًا وباردًا ضد السبب